ـيلة

المناخ، عرف أنّ الوضوح والبساطة لا يمكن أن يكونا عيباً. واجه الكتابة في القوالب الصحافية الجاهزة، وسعى لابتكار نص حر، فالأجر الوحيد الذي يحصل عليه الكاتب هو الفرح.

بدأ نشر مجموعاته القصصية الأولى «القاهرة» عام 1964 وواصل مع مجموعة «صباح الجمعة» (1970)، و«المسافر الأبدي» (1999)، «الشيخة»، و«الحصان الأجوف»، بالاضافة إلى ترجمة بعض النصوص التي كانت طليعية بمقاييس ذلك الزمن ومنها «نهاية اللعبة» لصموئيل بيكيت، وبعض نصوص بيتر فايس، وانغريد برغمان، وهنري ميللر، والكاتب المجري شاركادي امري.

في مراهقته وشبابه، جرّب علاء الديب الانخراط في تنظيمات دينية كعادة مراهقي ذلك الزمان وانتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين التي خرج منها لينتمي الى تنظيم شيوعي. وفي الستينيات، انضم الى التنظيمات الناصرية ومنها جبهة التحرير والتنظيم الطليعي، وكان مجرد رقم في كل تلك التنظيمات التي كان الانضمام لها شرطاً من شروط ممارسة الصحافة التي فصل منها إحداها بتهمة الانضمام إلى مؤامرة

> أبصر تحول الثورة إلى نظام، والمثقف اليساري الى موظف بيروقراطي

ـ لم يكن يعرف عنها شيئاً ـ بغرض قلب نظام الحكم. تركت هذه التجارب أثراً مريراً رافقه طوال حياته وعبر عنه في الخيارات الفنية التي لجأ اليها وكانت بتعبيره «بديلاً للانتحار». انكبّ على الترجمة بمعونة غالب هلسا وابراهيم منصور في فترة ارتبكت فيها حياته، وكما كتب في مقدمة ترجمته لنص لوتسو «الطريق إلى الفضيلة» بغرض مواجهة هزائم خاصة وأخرى عامة وارتباك في الفكر والسلوك، وكثيراً ما تحدث عن تلك الفترة التي كانت مليئة بقلق معرفي وصل الى حد الاكتئاب ومغامرات كشف الكثير من ملامحها في نصه السبر ذاتي بالغ الفتنة «وقفة قبل المنحدر... من أوراق مثقف مصري 1952-1982» (1999). نص عذب أقرب ما يكون إلى بيان على معلّم يعطي مفاتيح الولوج لعالمه الأدبي الذي انتقل من القصة إلى الرواية القصيرة في أواخر الثمانينات من القرن الماضي مع نشر رائعته «زهر الليمون» (1987) التي كانت قطعة الموزاييك الأولى في جدارية فنية ضخمة يؤرخ فيها لتناقضات مثقفي الطبقة الوسطى وتحولاتها. وبعدها جاءت ثلاثيته «أطفال بلا دموع» (1989)، و«قمر على المستنقع» (1993)، و«أيام وردية» (2000). روايات تتقاطع فيها أحلام وهواجس وانكسارات علاء الديب الشخصية مع جروح أبطاله (عبد الخالق المسيري/ الدكتور فكار/ أمين الالفي). تحول هؤلاء إلى أيقونات كاشفة عن عمق الخسارة والخذلان التي عاشها جيل الستينات مع هزيمة 67 التي تحول معها علاء الديب نفسه الى «ميت» كما يشير في سيرته الكاشفة. جعلته السنوات التي جاءت بعدها «شيخاً بلا حكمة، رأى شرخ الزجاج الذي بدأ دقيقاً ثم اتسع وهو لا يرتق ولا يجبر لأنه تكوّن في نفسه».

تبدو نصوصه اجمالاً أقرب إلى محاكمات أو مراجعات يستنزف فيها ذاكرة أطفاله. ثمة سعي لبلوغ الفضيلة والاعتراف بتعثر الأحلام وقسوة الانتماء الى هذه الطبقة رغم أنّ الشعور بتخلفها ظل يدفعهم إلى مزيد من الانتماء، مزيد من الارتباط بهذا الحلم الساذج البسيط المستحيل هو أن يعيش الناس واقعاً جديداً.

في مستوى آخر من القراءة، يمكن اعتبار روايات الديب وثيقة عن تراجع مصر وانكسارها عقب النكسة وموت عبد الناصر الذي لم يكن، كما رآه، مجرد رئيس، لكنه كان شيئاً في نسيج الحياة. مع تردي الواقع المصري في ظل عصر السادات، جرب السفر الى الخليج ولم يتمكن من الصمود لأكثر من شهرين. كتب عن الخليج، لافتاً الى اختلال الخريطة القيمية انطلاقاً من هذه التجربة الذاتية التي بقي أثرها كما بقيت في روحه هواجس التفكير في سطوة الرقيب الذي كان محصلة سلطات عديدة ضاغطة على الروح. لم يكن هذا الرقيب الا ذلك البورجوازي المحافظ القديم الذي ظلت أشباحه تطارده. رأي علاء الديب مراراً أنّ حياته كانت فقط محاولة للخروج من عبء الانتماء الطبقي المتوسط بتناقضاته لأنّ هذا الانتماء أعجزه دائماً عن أداء ما اعتبره واجباً، وعن التحدث بكل الصراحة الممكنة. عاش الديب من روحه وجسده تجارب المثقف البورجوازي الصغير إلا تجربة السجن، لكنه عاشه في بيته «عزلة ارادية» كصوفي داخل خلوة ظل ارتيادها مقصوراً على مريدين يعرفون أن يضاجع «كل ليلة جسد الحلم الميت والآمال المحبطة». بعد تجربة فصله من العمل الصحافي قبل أن يعود اليه لاحقاً، ترسخت في نفسه قناعة أنّ السياسة طين لزج أو رمال ناعمة سريعة، إذ نزعت عنه تجربة المنع من الكتابة «الأمان الروحي». جعلت الكتابة الأسبوعية في مجلة «صباح الخير» بلا أهمية الى أن وجد بديلاً للهرب من مأزق البقاء بلا عمل تمثل في باب «عصير الكتب» الذي اقترحه لمتابعة الكتب الجديدة. باب تحوّل عبر 40 عاماً إلى منصة اعتراف بالمواهب على اختلاف أجيالها. وقد وصفه الراحل ابراهيم أصلان في المقدمة الإضافية التي أنجزها للكتاب الذي صدر بهذا العنوان، بأنّه «شهادة حرة على حقبة ثرية من تاريخ هذا الوطن».

صنع تمثالاً خالداً للوحدة

صنعاء ــ **جمال جبران**

لم يفهم الجندي المسكين الواقف على بوابة التفتيش في مطار القاهرة بأن حقيبة الكُتب الإضافية التي معي هيّ كُتب شخصية ولست أتاجر بها. عندما فُتحت الحقيبة الضخمة لقى ثماني نسخ من كتاب كبير يضم «ست روايات قصيرة» لعلاء الديب (الهيئة العامة للكتاب-القاهرة) فاعتقد الجندي أني أخذتها بهدف بيعها في بلدي، وهي بسعر مدعوم حكومياً. «لازم جمارك يا بيه» هكذا قال لي وهو لا يعلم بشرائي لها كهدايا، وأنا الذي أحب إهداء كُتب الأدباء الذين أحبهم لِمن أحبهم.

وصاحب «عيون البنفسج» من أولئك الذين أرى بضرورة أن يُهدى وأن يتم تعميم كتابته التي لم تنفصل عن حياته ليكون أمام القادمين الجدد مثالاً/ تمثالاً يمنحهم ولو نقطة نور واحدة في هذا الوقت الترابي الذي صرنا نقيم فيه. استطاع الديب أن يختم حياته وقد نجح في عدم فعل خطوة واحدة إلى الوراء مستجدياً أو طالباً منفعة شخصية أو متنازلاً عن مبدأ أو منخرطاً في «شلّة» تدفعه إلى فعل ما لا يهوى أو ما لا يؤمن به. قرّر العيش في عزلة اختيارية بعيداً عن «الحظيرة» الرسمية، وظهر إثر كل هذا «كأنه صنع تمثالاً خالداً للوحدة».

لكن تلك العزلة لم تتخذ لنفسها مساراً مرضياً شبيهاً بحالة الاكتئاب الشرسة التي أصابت مثقفين كُثر بعد هزيمة يونيو 1967 وضربتهم في مقتل، بل جاءت على نحو متسم بالإنجاز الأدبي والصحافي الذي قرن صاحبه بـ«عصير الكتب» الذي ما يزال واحداً من أبرز المساحات التي تخصصت في عرض جديد الكتب وتقديم أصحابها على نحو رفيع وبنظرة تمنحهم خطوة إلى الأمام. وقد كان يفعل كتابته تلك بعيداً عن تأثير معرفة مُسبقة أو بدافع من منفعة يود وصولها.

هكذا يمكننا اكتشاف الطريقة التي نجح عبرها كاتب «أطفال بلا دموع» من تحقيق نجاته من مرض الاكتئاب، حين استنجد بالكتابة متخذاً إياها مساحة للفضفضة والبوح بالقدر الذي منحه فرصة للتخفيف من الأثقال التي هجمت على قلبه حيث «كان الألم يقربه من جوهر وجوده». ويمكن لمس هذه النقطة بملاحظة النبرة الذاتية التي كانت تسيطر على لغته السردية بحيث لا يمكن فصلها عن باب السيرة الذاتية، مع ذلك التطابق الكبير الذي جمع بين الكتابة وحياة الديب نفسها.

ولنا هنا اتخاذ عمله «أيام وردية» (2002) نموذجاً يمكننا عبره وضع أيدينا على جملة الإشكالات التي حاصرت حياة الديب وجعلت قلبه موجوعاً. لا نقدر ونحن نمضي في صفحاتها على وضع فاصل كبير بين حياة بطل العمل (أمين الألفي) وبين كاتبه الذي عمد في إصدار «ست روايات قصيرة» التي كانت «أيام وردية» من بينها، إلى إلحاق شهادة في ختام الكتاب تكاد تطابق حياة الألفي نفسه من إدانة لتحولات الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها وكيف تحولت البلاد إلى منافذ للجريمة والتهريب وظهور الجماعات الإسلامية مدعومة بالنفط والمال السعودي. لقد عاش علاء الديب هذا واقعاً حين ذهب في غربة قصيرة إلى تلك «الأرض الحرام» استمرت ستين يوماً وعاد. لكن بقيت تجربة الرحلة في الغربة «كابوساً إنسانياً وفنياً» لأنّها «فتحت لي مغاليق الظاهرة الرهيبة التي يعيشها ملايين المصريين الباحثين عن الرزق والمال، متحملين أنواعاً غريبة من المعاملة والتعامل مما يصنع ملاحم في العذاب والتصادم والكذب». لقد سجل كل هذا في روايته القصيرة تلك كأنه يبحث لنفسه عن نجاة من عواقب الغرق في الاكتئاب المميت ليرحل اليوم بقلب هادئ ومطمئن، يكاد يطابق نهاية بطل «أيام وردية» الذي «عرف أخيراً كيف يموت، حوله دنيا واسعة، خالية، ليس إلى جواره أحد، لم يكن حزيناً. يراقب الأشياء وهي تنتهي، ليس في ضوضاء، لكن في سكينة».